الأَديبْ و المُفكِّرْ الرَّاحِل
رَمَضان عَبْدِ الرَّحْمن لاَوَنْد
عهد الله

الحلقة الخامسة

مقدمة البرنامج..

مؤثرات.. بغلتان تنطلقان في الطريق ثم يغيب الصوت في أثناء الحوار..

والي صنعاء: وأخيراً أليس عندك ما تقوله يا ابن إدريس؟

الشافعي: " بعد تردد " الحقيقة أيها الأمير أن ذكريات الأحباب قد شغلتني وملأت علي خيالي.

الوالي: لعل الحديث عنهما أن يسرّي عنك وأن يملأ الفراغ في ساعات السفر.

الشافعي: ماذا أقول لك أيها الأمير؟ هل أقول أن وفاة الإمام مالك رحمه الله قد قصمت ظهري، وهدّت في الإسلام ركناً عظيماً..

الوالي: لكنه رحمه الله ذهب إلى ربه راضياً مرضياً. لقد وجد عليه أهل المدينة وكل من عرف علمه وبره في أمة الإسلام. وأنت تعلم يا بن إدريس أن ألسنة الخلق أقلام الحق.

الشافعي: صدقت أيها الأمير.. ومما زاد في همي أن وفاة الإمام مالك قد سبقت بوفاة أمام جليل آخر هو الليث بن سعد رحمه الله. فقد عرفت فيه خلقا وعلما وذكاء عقل.

الوالي: أرجو يا شافعي أن تجد في صنعاء ما يسري عنك. فإنك ستلاقي فيها ناساً هو أشوق ما يكونون إلى مثلك.

الشافعي: أنا لا أشك أيها الأمير في أن حسن التدبير عندك والعدل الذي تمارسه في الرعية سيساعدان على توفير الظروف الملائمة للتشجيع على طلب العلم..

يعود صوت مسيرة البغلتين إلى الارتفاع مرة أخرى وينخفض شيئاً فشيئاً..

الوالي: ألا ترى أن تأخذ قسطاً من الراحة قبل أن يستقبلنا أهل صنعاء؟ فإني أخاف من أن تُضاف مشقة الاستقبال إلى مشقة الطريق..

الشافعي: " فترة صمت " الحمد لله على نعمه..

تم تحميل هذا الملف من مكتبة الأديب الراحل رمضان عبدالرحمن لاوند (سيّد المنابر) www.RamadanLawand.com
مع الاحتفاظ بكامل حقوق الطبع و الملكية الفكرية ،لمزيد من المعلومات يرجى مراسلتنا :info@RamadanLawand.com

الوالي: هل تعلم يا شافعي أن إحساسي بجلال الله عز وجل يزداد قوة كلما وجدت نفسي في هذا المكان من جبال صنعاء؟

الشافعي: كل شيء في السماء والأرض يتحدث عن جلال الله ويشير إلى نعمه التي لا تحصى..

الوالي: بالمناسبة.. هل لم تتزوج بعد؟

الشافعي: كيف أتزوج وقد شغلني طلب العلم عن الزوجة والأسرة؟ الزواج أيها الأمير يحتاج إلى الاستقرار وإلى تأمين الرزق.

الوالي: أما وأنت في الطريق إليهما فالأليق بك أن تتزوج لا سيما وأنك تقترب من نهاية العقد الثالث..

الشافعي: أفعل إن شاء الله..

الوالي: ما رأيك لو ننام قليلا ثم نتابع الطريق؟

فترة صمت ثم ترتفع ضجة جمهور من بعيد..

الشافعي: ألا تسمع ما أسمع؟

الوالي: هذه فيما أظن ضجة الجمهور من أبناء صنعاء لا بد أن بعضهم قد أبلغهم باقترابنا من المدينة فلنستعد لاستقبالهم..

ترتفع ضجة الجمهور ثم تزول شيئا فشيئا..

مساعد: أيها الأبناء.. من هنا يتبين لكم أن الشافعي رحمه الله قد صحب والي اليمن إلى مدينة صنعاء بعد وفاة الإمام مالك رحمه الله.

خالد: وكيف تهيأت للشافعي عودته إلى المدينة؟

مساعد: كان ذلك بعد أن استقر قليلاً في الرملة جنوب بيت المقدس من أرض فلسطين وكان قد بلغ الرابعة والعشرين من العمر.

خالد: ولماذا اختار العودة إلى المدينة؟

مساعد: خطرت له فكرة العودة حين ساقته المصادفة إلى التقاء قافلة قادمة من المدينة. فسأل أصحابها عن الإمام مالك. ولما علم منهم أنه بخير اشتاق إلى رؤيته. فاشترى راحلة ومضى يقطع بها الطريق فوصل إلى المدينة المنورة بعد سبعة وعشرين يوماً في أواخر عام 174 هـ.

خالد: لا بد أن الإمام مالكا قد أحسن استقباله.

مساعد: ليس هذا وحسب يا خالد. إنه حين علم بحضور الشافعي استدعاه وضمه إلى صدره ونزل عن كرسيه في حلقة المسجد وكان آنذاك يعطي درسه الأسبوعي وقال له: أتمم أنت هذا الدرس يا شافعي.

خالد: وكم بقي رحمه الله في المدينة؟

مساعد: أربعة أعوام ونيفاً على التقريب ثم لم يفكر في مبارحة المدينة إلا بعد وفاة الإمام مالك رحمه الله.

خالد: هل تقول لنا يا أستاذ مساعد كيف أخذه والي صنعاء معه؟

مساعد: هنا لعبت المصادفة دورها أيضاً. فقد حدث أن والي اليمن جاء إلى المدينة وكان الشافعي قد بلغ التاسعة والعشرين من العمر فكلّمت جماعة من قريش والي اليمن في موضوع الشافعي فلم يتردد في أخذه كاتبا عنده.

خالد: لقد فهمنا من الحوار أن الشافعي قد وافق على الزواج. فهل تزوج فعلا في صنعاء؟

مساعد: نعم يا بني.. لقد تزوج من السيدة حميدة بنت نافع حفيدة عثمان بن عفان رضي الله عنه ورزق منها ولدا هو أبو عثمان محمد وابنتين هما فاطمة وزينب.. والجدير بالذكر أن ولده أبا عثمان قد ارتقى في المناصب بعده حتى أصبح قاضيا لمدينة حلب.

خالد: ألا تحدثنا قليلاً عن حياة الشافعي في اليمن؟

مساعد: بكل سرور يا خالد.. لقد أقام على عمله يفتي الناس ويحكم بينهم بالعدل ويلازم الإمام يحيى بن حسان صاحب الإمام الليث بن سعد. كما استمر ناشطاً في طلب المزيد من العلم. وقد تعلم علماً جديداً تختص به اليمن آنذاك هو علم الفراسة.

خالد: وهل صحيح أنه رحمه الله كان يحيط بعدد كبير من العلوم؟

مساعد: الثابت أنه أحاط بعلوم العربية والفقه والقرآن وأتقن نظم الشعر حتى لقد روي عنه قوله:

ولولا الشعر بالعلماء يزري لكنت اليوم أشعر من لبيد

خالد: وماذا كانت صلته بعلوم الطبيعة والكون.

مساعد: الثابت أيضا يا خالد أنه أتقن علوم الرياضيات والطب والفلك وأحاط علماً بما تسرب إلى العالم الإسلامي من فلسفة الأوائل.

خالد: لكن هذا غير معروف عنه ولم يشتهر به.

مساعد: ذلك لأن شهرته كصاحب مذهب ومشترع وفقيه قد غلبت عليه.

خالد: أعتقد أننا أطلنا عليك في الأسئلة.

مساعد: كلا يا خالد.. إن في وسعكم جميعاً أن تسألوا ما وجدتم سبيلاً إلى سؤال.

خالد: حسن وهذا سؤال أخير.. هل تقول لنا ما هو أخطر موقف واجهه في حياته وكيف تصرف فيه؟

مساعد: أحسنت إذ وجهت هذا السؤال ذلك لأن معرفتنا بجوهر شخصية الإنسان مرتبطة بمراقبته في الأزمات والمواقف الخطيرة.. أما الموقف الأخطر في حياته فهو ذاك الذي قاده إلى قصر الخلافة في أيام هارون الرشيد مقيداً بالسلاسل بسبب وشاية اتهم فيها بتزعم فئات تأتمر بدولة الخلافة.. وهناك كان حوار وكان تحول في الموقف..

نقلـة.....

الشافعي: " بينه وبين نفسه " اللهم يا لطيف أسألك اللطف فيما جرت به المقادير." يكرر هذا الدعاء "..

هارون: من أنت وما هو دورك في المؤامرة؟

الشافعي: أنا يا أمير المؤمنين محمد بن إدريس الشافعي المطلبي.. فالسلام عليك يا أمير المؤمنين وبركاته " لم يقل ورحمة الله "..

هارون: وعليك السلام ورحمة الله وبركاته.. لقد بدأت بسنة لم تؤمر بإقامتها ورددنا عليك فريضة قامت بذاتها. والأعجب من ذلك أنك لم تجب عن السؤال كاملا..

الشافعي: قال الله تعالى في محكم تنزيله: وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (النور:55)...

وهو الذي إذا وعد وفى. فقد مكنك في أرضه، وأمّنتني بعد خوفي حين رددت علي السلام بقولك (وعليك رحمة الله) فقد شملتني رحمة الله بفضلك يا أمير المؤمنين.

هارون: حسن.. فما عذرك من بعد ما تبين أن الذي تتمردون لمصلحته قد طغى علينا وبغى واتبعه الأرذلون وكنت أنت الرئيس عليهم؟

الشافعي: أما وقد استنطقتني يا أمير المؤمنين فسأتكلم على العدل والإنصاف، لكن الكلام مع ثقل الحديد صعب، فإن جدت علي بفكّه عن قدمي جثوت على ركبتي كسيرة آبائي عند آبائك وأفصحت عن نفسي. وإن كانت الأخرى فيدك العليا ويدي السفلى والله غني حميد.

هارون: ارفع عنه الحديد يا سراج " يسمع صوت الحديد يرفع عنه " والآن تكلم فنحن لك سامعون.

الشافعي: قال الله تعالى: " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا ".. حاشا لله أن أكون ذلك الرجل. لقد كذب المبلغ فيما أبلغك به يا أمير المؤمنين أن لي حرمة الإسلام وذمة النسب وكفى بهما وسيلة. وأنت أحق من أخذ بأدب كتاب الله. أنت ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم، الذاب عن دينه والمحامي عن ملته.

هارون: أصبت يا شافعي.. ليذهب خوفك فأنا نراعي حق قرابتك وعلمك. فقل لنا ما عندك.

الشافعي: يا أمير المؤمنين إذا أحسنت اختيار بطانتك فقد أمنت على نفسك غضب الله. وإذا لم تجد في دنياك غير دار ممر فإنك واجد في آخرتك ما يشفع لك عند رب العالمين.. لا تجعل لغرور السلطان سبيلاً إلى قلبك.. فإن سلطان الله من فوق سمائه فوق سلطانك.. يا أمير المؤمنين.. العدل عبادة.. والإحسان أعظم أنواع العبادات.. فاجعل من الإحسان عندك سبيلا إلى الفوز برضاء الله وإلى إدخال العزاء إلى قلوب المحرومين والضعفاء. فإذا رحمت من في الأرض رحمك من في السماء..

يا أمير المؤمنين اتق الله في رعيتك واعلم أن كل متهم بريء ما لم تثبت إدانته وادرأ حدود الله بالشبهات فإنك أن تهز سيف العقوبة والنقمة خير لك في دنياك وآخرتك من أن تجعل من الانتقام وسيلة وحيدة لغسل القلوب. ليكن عفوك أكبر من ذنوب المذنبين ما لم يكن حد من حدود الله. وإن لك في نسب آبائك وخلائقهم ما يجعل الرحمة أسرع إليك من القسوة.. والعفو أحب إليك من العقوبة..

هارون: " فترة صمت ثم بصوت متهدج " حسن يا شافعي.. قد عفونا عنك وعن بقية أصحابك.. وأمرنا لك بألفي دينار.

الشافعي: أما العفو يا أمير المؤمنين فجزاك الله عنه خيراً وأما الجائزة فلا والله يا أمير المؤمنين، لا يراني الله عز وجل، وقد سودت وجه موعظتي بقبول الجزاء عنها.

نقلة موسيقية.....

خالد: لكن الشافعي يعلم أن الاعتذار عن قبول جائزة أمير المؤمنين أمر خطير فكيف فعل ذلك؟

مساعد: هذا صحيح يا خالد.. ولذلك فقد عاد بعد أيام قليلة. يطلب الإذن في مقابلة الرشيد فأذن له وأجازه الخليفة بألف دينار فتقبلها الشافعي ودعا له. وهنا ضحك هارون الرشيد وأدرك سر عودة الشافعي إليه وتقبله للجائزة فقال: ما أفطنك يا ابن ادريس. قاتل الله عدوك.. إنك خير من يعهد إليه بحمل الأمانة..